

قضية الفصحى والعامية

الاستاذ سامح المصري

فان كل امة من الامم تحتاج الى لغة « موحدة »
تزيدها تجاوبا وتماسكا ، فنكون « موحدة » .

لان مهمة اللغة — في الحياة الاجتماعية المعقدة
الحالية — لا تنحصر في ضمان التفاهم بين المتخاطبين
الذين يعيشون في قرية واحدة او مدينة واحدة ، ولا
بين الذين ينتسبون الى اقليم واحد ، او قطر واحد ،
بل هي ضمان التفاهم والتكاتف والتجاوب .. بين
جميع ابناء الامة ، على اختلاف مدنهم واقطارهم .

والتاريخ الحديث ملئ بأمثلة بليغة ، على
الجهود الجبارة التي بذلها ، ولا يزال يبذلها ، عدد
غير قليل من الامم والدول في هذا السبيل
توطئة لاستقلالها او ضمانا لوحدها .

فنحن العرب نفتقر اليوم الى (لغة) يتفاهم
بها جميع الناس في جميع الاقطار العربية .

ولكن ما السبيل الى ذلك ؟

ماذا يجب ان نعمل للتخلص من البلبلة الحالية،

ان قضية الفصحى والعامية ، من اهم المشاكل
التي تثير الجدل والمناقشة بين رجال الفكر والقلم ،
في مختلف البلاد العربية ، منذ مدة غير يسيرة .

ذلك لان الفصحى لا يعرفها الا المثقفون ، ولا
يتخاطب بها الا طوائف محدودة من هؤلاء ، واما
العامية الدارجة ، فكثيرة الانواع تختلف اختلافا بينا
لا من قطر الى قطر فحسب ، بل من مدينة الى مدينة
في القطر الواحد أيضا . حتى انها تختلف بعض
الاختلاف من حارة الى حارة ، ومن جماعة الى جماعة
في المدينة الواحدة ، في بعض الاحيان .

اذن فنحن — عرب اليوم — بين لغة فصحى
يتفاهم بها بعض الناس في جميع البلاد العربية ،
وبين لغات عامية عديدة يتفاهم بكل منها جميع
الناس ، في بعض المناطق المحدودة من بعض البلاد
العربية .

ولا حاجة الى القول ان هذه الحالة مخالفة
لمقتضيات الحياة القومية السليمة ، من وجوه عديدة .

والنعم بنعمة « لغة موحدة موحدة » في جميع الاقطار العربية ؟

إذا تأملنا في هذا الامر بالمنطق المجرد خطر على بلاننا ثلاثة سبل اساسية :

(أ) السعى وراء نشر وتعميم لغة من اللغات الدارجة — أى لهجة من اللهجات العامية — على جميع البلاد العربية ..

(ب) السعى وراء نشر اللغة الفصحى ، بين جميع طبقات الشعب ، في كل قطر من الاقطار العربية .

(ج) السير على طريقة متوسط بين الاولى والثانية ، على تطعيم اللغات الدارجة باللغة الفصحى؟

ولا حاجة للبيان ان الطريقة الاولى — أى تعميم واحدة من اللغات الدارجة على جميع البلاد العربية — غير منطقية وغير عملية ، فلا بد من التوجه الى اللغة الفصحى ، التى لها جذور عميقة وأسس متينة ، وممثلون اقوياء ، في جميع البلاد العربية ، لذلك يحسن بنا ان نحصر البحث والنقاش في الطريقتين الاخريتين وحدهما :

من المعلوم ان قواعد الفصحى ، في حالتها الحاضرة ، محققة كل التعقيد ، وصعبة أشد الصعوبة ، وبعيدة عن اللهجات الدارجة بعدا كبيرا ، فيجدر بنا ان نتساءل : هل من الضروري ان نتمسك بجميع تلك القواعد التى وضعتها او دونها اللغويون منذ قرون عديدة ؟ هل يتحتم علينا ان نصرف قوائنا في سبيل نشر وتعميم جميع تلك القواعد والاساليب ؟ الا يمكن ان نخصر ونبسط اللغة الفصحى ، ونشذبها تشذيبا معقولا ، يكسبها شيئا من السهولة ، من غير ان يفقدها ميزتها التوحيدية ؟ افلا نستطيع ان نطعم اللغات الدارجة باللغة الفصحى تطعما يبعثنا عن حذقة علماء اللغة ورطانة عوام الناس في وقت واحد ، فيوصلنا الى فصحي متوسطة ، معتدلة ؟ افلا يحسن بنا ان نلجأ الى هذه الطريقة ، ولو بصورة مؤقتة ، كمرحلة من مراحل السير والتقدم نحو الفصحى التامة ؟

ان الاجابة عن هذه الاسئلة — اجابة صحيحة

— تتطلب القيام « بأبحاث علمية » واسعة النطاق ، تتناول الفصحى والدارجات في وقت واحد ، وتدرس القضايا بجميع تفاصيلها ، وتقلب المسائل على جميع وجوهها .

اولا ، يجب ان نبحث : ما هى الحدود الفاصلة بين الفصحى والعامية ؟ ما هى الفروق التى تميز الاولى عن الثانية من حيث المفردات وكيفية نطقها من ناحية ، ومن حيث التراكيب واسلوب ترتيبها من ناحية أخرى ؟

وفي امر المفردات : هل يجوز لنا ان نعتد على المعاجم والقواميس المعلومة كل الاعتماد ؟ يجب ان نفكر في ذلك مليا ، لانه من المعلوم ان تلك المعاجم مزدحمة بكثير من الكلمات المهجورة التى لم يعد احد يشعر بحاجة الى استعمالها ، ومقابل ذلك انها خالية من عدد غير قليل من الكلمات التى استعمالها ولا يزال يستعملها اشهر العلماء والادباء في اهم آثارهم العلمية والادبية ، كما ان الكثير من الكلمات القاموسية تستعمل الآن في معان تختلف عن المعانى التى كان قد دونها القدياء كل الاختلاف . فلا بد لنا من ان نبحث عن معيار آخر يساعد على تمييز الفصحى عن العامى تمييزا معقولا .

وفي امر القواعد : هل يترتب علينا ان نعتبر آراء العلماء القدياء القول الفصل فيها ؟ أفلم يختلف هؤلاء انفسهم فيما بينهم في أمور التجويز والتفصيل والترجيح ؟ افلا يحق لنا ان نعيد البحث والنظر فى تلك الاقوال والآراء ، وان نسلك مسلكا يختلف عن مسالكهم في امر التجويز والتفصيل ؟ وهل يتحتم علينا ان نسمى وراء نشر وتعميم تلك القواعد بحذائرها ؟ افلا يمكننا ان نستغنى عن البعض منها لنجعلها اقل تعقيدا وأكثر قابلية للانتشار ؟ وفي الاخير ، لو قلنا بوجوب التمسك بجميع تلك القواعد ، افلا يجب علينا ان نرتبها ترتيبا معقولا ، لنقدم الاهم على المهم ، ونسير على قاعدة التدرج في جهودنا « التفصيلية » ؟

ثانيا : يجب علينا ان ندرس اللغات العامية واللهجات المحلية ، المنتشرة في مختلف البلاد العربية : ما هى انواعها ؟ وما هى خصائص كل نوع منها ،

ثم ان ازدياد التواصل والتعامل والتزاور بين المدن والارياف من جهة ، وبين الاقطار المختلفة من جهة أخرى ، أدى الى حدوث تغير محسوس في أوصاع اللهجات المحلية وفي التعبيرات العامية أيضا : صارت لهجات بعض العواصم تؤثر تأثيرا كبيرا في اللهجات الفرعية ، كما ان لغة عامة الناس أيضا أخذت تتهذب وتتطور بتأثير انتشار التعليم ، وازدهار الصحافة ، وتعريب دواوين الحكومة ، وقيام الحياة النيابية .

ولا نغالى اذا قلنا : انه اخذ يتكون في بيئات المتنقلين في جميع البلاد العربية نوع من « لغة التخاطب » اقتبست الشيء الكثير من خصائص الفصحى ، وتباعدت عن الكثير من أساليب العامية .

فيحسن بنا ان نتميق ونتوسع في درس هذه التطورات وتدوينها ، لنستفيد منها ونستشير بها في تقرير خططنا الإصلاحية .

* * *

يتبين من كل ما تقدم ان الابحاث اللغوية لا يجوز ان تبقى محصورة بين صحائف الكتب والمعاجم المعلومة ، بل يجب ان تخرج الى ميادين الحياة الاجتماعية ، وتدرس وتسجل ما يشاهد وما يلاحظ في تلك الميادين بصورة فعلية .

ويجب ان لا ننسى ان علماء اللغة القدماء تجولوا بين القبائل ودونوا ما سمعوه وما لاحظوه بكل تفصيل واهتمام . فيحسن بنا ان نفتدى بهم فنلاحظ ونسجل ما نسمعه من خصائص الكلام ، في كل مدينة وفي كل بيئة ، بين الزراع والعمال ، بين البنائين والتجار ، في المدن والارياف ، بين الرجال والنساء ، بين الكهول والاطفال .

ولا يجوز ان نتعاس عن العمل في هذا السبيل بحجة الاكتفاء باللغة الفصحى .. اذ يجب علينا ان نعلم علم اليقين بان تغير الاشياء وتحسينها يتوقف على معرفة خصائصها ومراعاة نواميسها .

من حيث الكلمات والالفاظ والتعابير ؟ وما حدود انتشار كل واحدة من تلك الكلمات والاساليب والتعابير ؟ وما هي اسباب اختلاف هذه اللهجات عن الفصحى من ناحية ، وبعضها عن بعض من ناحية أخرى ؟ الا يوجد بين الكلمات الدارجة في بعض البلاد ما ينطبق على قواعد الفصحى كل الانطباق ؟ الا يوجد بين اللغات الدارجة صفات واتجاهات عامة ومشاركة ؟ الا تدل هذه الاتجاهات العامة والمشاركة على وجود دوافع عامة وضرورات مشتركة ؟ افلا يجب علينا ان نستكشف هذه الدوافع والحاجات ، لكي نستطيع ان نعالجها بأساليب اقرب الى الفصحى على قدر الامكان ؟

ان كل هذه الامور والمسائل يجب ان تدرس وتبحث بكل اهتمام .

وفضلا عن ذلك يجب علينا ان نتبع التطورات التاريخية أيضا : من المعلوم ان اللغة كائن حي ، يتطور على الدوام بتطور المجتمع ، وينمو تبعا لنمو الافكار وتنوع الحاجات ، اذ لكل كلمة وكل أسلوب ، في كل لغة وفي كل لهجة تاريخ طويل او قصير ، ماض قريب او بعيد .

ان نظرة فاحصة سريعة الى ما طرا من تحولات على اللغة العربية في مختلف البلاد خلال جيل واحد تقريبا — منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى مثلا — تكفى للتأكد من صحة ما قلناه آنفا : لقد حدثت تطورات كبيرة في لغة الدواوين ، وفي لغة الصحف ، وفي لغة التخاطب في مختلف البيئات ، في جميع البلاد العربية ، فقد دخل في كل منها عدد كبير من الكلمات الجديدة ، مشتقة من اصول فصيحة ، او مقتبسة من لغات اجنبية . ومعظم هذه الكلمات المقتبسة كانت فرنسية في بعض البلاد العربية وانكليزية في بعضها الآخر ، وذلك تبعا للاوضاع السياسية الخاصة التي طرات على كل واحدة من تلك البلاد . ومن جهة اخرى بدأت حركة معاكسة لذلك لترك تلك الكلمات الاجنبية واستبدال كلمات عربية بها .